أمومة حائرة

قصة قصيرة بقلم

احمد فؤاد تيمور

يقدمها محمود تيمور

هذه قصة قصيرة اخترت أن أقدم لها ، وما أقصد بهذا التقديم مجاملة كاتبها ، لمكان قرابته منى ، بقدر ما قصدت الى تقدير ما فيهـــا من قرابة للفن ، وهى أعز وأبقى ، وليس غيرها أولى بالمجاملة والايثار .

لقد استرعى انتباهى من القصة أنها طليعة طيبة ، وما أحرانا أن نهتف لمثلها من الطلائع ، كى تأخذ الكفايات المبشرة حظها من النماء والازدهار .

وليست هذه القصة بالتى تنطوى على أحداث ضخام ، وشخصيات معقدة ، ونهايات مثيرة ، ولكن قيمتها تتركز فى لمستها الانسانية الصادقة ، وفى منحاهـــا الطبيعى الهين المألوف الذى سارت فيه بدءا وختاما .

يصور لنا الكاتب طفلة نشأت ، وبين جنبيها مشاعر مبكرة للأمومة ، فكان متنفسها العاطفى هو الدمى والعرائس ، ومضت بها الأيام تنضج من مشاعرهـــا تلك ، حتى استقبلت حياة الزوجية ، وهى معقد الأمل فى أن يتحقق لها حلمهـا المنشود ، وبينما هى توشك أن تقطف الثمرة الزكية ، وتنعم بالصحبة الانيسة ، اذا صرح الأمل ينهار ، فلا تجد أمامها الا سرابا كان يروى ظمأها فى عهـــد الطفولة الغضة ، وهيهات أن يطفى لها اليوم ظمأ ، وقد جاوزت ذلك العهد الوديع .

لم يفت الكاتب أن يستهل قصته بتمهيد ، فأدار حوارا حول صورة تزين حائط حجرة ، وما هذه الصورة الا رمز لمحور القصة ، أعنى الأمومة ، وفى الحوار تلمع هذه الجملة « ان كل امرأة تحيا فى باطن نفسها ما تحياه على مطرح أنظارنا تلك الأم الفخور . » . وهذا التمهيد يدل على بصر بالصناعة القصصية ، اذ يقيم ركنا من أركانها ، هو الايحاء بالموضوع ، والتشويق اليه . وليس التمهيد ثانويا فى علاقته بالقصة ، وليس نطاقه بحيث يطغى على كيانها الجوهرى .

مضى الكاتب يصف لنا كيف نشأت عاطفة الأمومة عند الطفلة وصفا جميلا ، فهى «ما كادت تستكمل سنيها الخمس حتى كان سمعها الغض يأنس بذلك اللحن الطروب ، لحن الأمومة الخالد ، وعاشت فى حداثتها تترسل عليها تلك الأنغام العذبة الرائقة كأنها سواكب الطل فى الأسحار ، تلثم نابت الزهر ، أو كأنها مطالع الأضواء تداعب عصفورا فى وكره لتنفض عنه خدر النعاس ، وتبعث فيه يقظة النهار الجديد »

وأحسن الكاتب فى اختيار الجو الذى يصلح مسرحا لتلك العاطفة الامومية فى عهد الطفولة ، جو الدمى والعرائس ، وبرع فى نقل احساسات الطفلة ، وهى تضفى على تلك الجوامد خفقة الحياة ، حتى لكأننا نعيش مع العرائس والدمى ، نحسبها من الأحياء ، فالعروس كانت تقع فى يد الطفلة « دمية صامتة ، لا حس فيها ولا حراك ، فتسرع اليها تتحدث ، وتقبل عليها تتعرف ، فكأنما تنفخ فيها من روحها ، ليستكمل خلقها ، فاذا الدمية الصموت ناطقة ، واذا العروس الجامدة خلق آخر يشعر ويحس . »

ولا يقف الكاتب فى تصوير موقف الطفلة من العرائس والدمى عند مجرد الوصف ، ولكنه يحاول أن يجعلنا نؤمن بأن الطفلة قد اتخذت من عرائسها ودماها دنيا حقة لها كل مظاهر الواقع ، فهى تقص عليها ما تقص ، وهى تغضب منها تارة وترضى عنها تارة أخرى ، وهى تعالجها اذا أصابها الضر ، وهى تتعهدها ليل نهار .

ولا يدخر الكاتب جهدا فى تصوير ما يسميه بحق « خلجات الأمومة » فبينما الأم تتمثل طفلها عملاقا كبيرا له صولة وهيبة ، تتمثله فى الوقت نفسه رضيعا يفتقر الى ثديها ليلتمس عنده رحيق الحياة .

وينتقل بنا الكاتب مع الأم الثكلى ، الى عالم الدمى والعرائس ، عودا على بدء . اذ تعود الأم سيرتها الأولى ، لا سلوة لها بعد فجيعتها الفادحة الا أن تلوذ بتلك الجوامد تخلع عليها صبغة الحياة التى ضن بها الزمن على وليدها المرموق .

وينتهى بنا الأمر الى الأم تهدهد عروسا من قطن على مهد الطفل الفقيد ، وفجأة تهبط على حافة المهد ، متشبثة بأعواده ، يستبد بها نشيج موصول . وانه لختام موفق تتجلى فيه يقظة الواقع ومرارة الحقيقة ، على الرغم من خداع النفس بالخيال الموهوم .

والقصة فيها لوامع من حقائق الحياة ، ومنازع النفس ، فى أسلوب يؤثر الجمال والتأنق لفظا وعبارة ، وكأنما الكاتب يغنى قصيدة أو يعزف لحنا ...

ضـــمنا بهو الدار ذات عشـية ، تترسل من ثرياته أضواء محتشـمة تفيض على الحجرة مزاجا من السكينة والأمن ، وكاننا بين نقوشـــه المحلاة بالتبر الخالص ولوحاته الفنية الأصـيلة فى محراب الفن نتوسم الروعة والبهاء ·

وأظهر ما فى ذلك البهو لوحة لفنان عبقرى تمثل الأمومة فى أوضح تعبير ، وقد انحنى اطارهـــا المذهب على طفل يرتضع ثدى أمه الحنون ، وهى رانيـة اليه بنظرات زهو واعجاب ، يرصـــع جبينها تألق كتلك البسمة المشرقة التى يطلقها الوجود يحيى بها تباشير الصباح

وجلسنا نترشف أقداح القهـــوة ، ونعاود ما كنا نتداوله من أحاديث الفن وأهله · فانبرى من بين المدعوين أحدهم يغمغم ، وهو مضطجع فى جلسته وعيناه معلقتان باللوحة ·

لم أجتل أروع من ذلك الرسم ··· فيه يتآلف سمو الفن وواقع الحياة ··· أليست الأم هى ذلك النبع الفيـــاض يتفجر منه رحيق الحياة ··· أو ليس وليدها ذلك الجدول الرقراق يحمل معنى الفتوة ، وينشر روح الخلود فى مداره ومجراه ؟ ···

وعقبت سيدة البيت ، وهى تزجى ضحكة لينة عابثة :

مرحى لك يا سيدى الفيلسوف ··· ماذا يفيد ذلك النبع الفياض وهو يجود برحيقه على الجـدول الرقراق ؟ ··· أكذوبة العيش ، وخدعة الدنيـــا ··· ليس جدول الرقراق الا نذير الاضمحلال والضعف والفناء لذلك النبع المســلوب ··· أهذا معنى الخلود يا سيدى ؟

فقال لها محدثها وما زال رانيـــا الى جدار البهو ، ينفث دخان لفافته ، فتتعقد فى سماء الحجرة غلائل من سحب لا تلبث أن تفنى :

لا شك عندى ســـيدتى أن كل امرأة تحيا فى باطن نفسها ما تحياه على مطرح أنظـــارنا تلك الأم الفخور ··· ألم تفطنى الى مـــا يتوضح على محياها من رفاهة ونعيم ··· انهـــا تتوسم فى هـــذا الغصن الرطب عمرا جديدا لهـــا تتمثل فيه نضرة الربيع وشباب الحياة ··· أنظرى الى عينيها تتلألأ ··· الى وجهها ينطلق ، الى بسمة على ثغرهـــا تكشف عن ثقة ورضـــا واطمئنان ··· هذه هى رسالة المرأة ··· رسالة البعث ، رسالة البقاء ·

فتجافت سيدة البيت عنه بنظراتها تهمهم :

اننا نفتقر الى ثالث يحسم ما بيننا من خلاف ·

وأقبلت على تقول فى صوت متراخى النبرات :

يسعدنى سيدى الطبيب أن أقف على رأيك فى هذا المشكل ···

وكانت مفاجأة أذهلتنى شيئا ... وانسابت نظراتى الى اللوحة مليا فى مكانهـــا العلى ، عسى أن تلهمنى الرأى السديد .

وانطلقت أسرح الفكر لحظات فيمـــا سمعت ، فوثبت الى ذاكرتى أشتات من الأحداث مرت بى فيما غبر من أيام ، واذا أنا أتطلع الى الجمع فأقول :

سأقص عليكم قصة تراخى بهـــا العهد ، غير أنها ماثلة فى تفصيلاتها ودقائقها أراها وأحسها كأنما أشهدها فى يومى الحاضر ... لتغفروا لى أنى أكتم الأسماء ... بذلك يقضى علينـــا أدب المهنة ...

منذ سنين انعقدت بينى وبين أسرة من كرائم الأسر ألفة ، وتوثقت صحبة ، وكثيرا ما تتعدى الصـــلة بين الطبيب ومرضاه حد التعارف ، فتصبح صداقة وكيدة وودا مصفى .

بيت القصيد فى أسرتى صبية بكرت اليهـــا مشـــاعر الأمومة وهى طفلة لم تستكمل سنيها الخمس بعد ، فابتسمت للحياة يأنس سمعها الغض بذلك اللحن الطروب ، لحن الأمومة الخالد ، وعاشت فى حداثتها تترسل عليها تلك الانغام العذبة الرائقة ، كأنها سواكب الطل فى الأســـحار تلاثم نابت الزهر ، أو كأنها مطالع الاضـــواء تداعب عصفورا فى وكره لتنفض عنه خدر النعاس ، وتبعث فيه يقظة النهار الجديد ...

وتوضحت خلجات الأمومة فى مواقف عدة من حياة الصبية ، طورا بعد طور ، وعهدا بعد عهد ...

كان أهلوها يسارقون اليها النظر فيلفونها قد خلت الى عرائسهـــا فى ركن من أركان حجرتها الخاصة ، توليهن الرعاية والحدب ، كأنها أم رؤوم تتعهد أطفالها بما يوفر لهم الراحة والنعيم .

ومـــا كان ذوو القربى وغيرهم من الجيرة والصـــحب يتعالون نبأ افتتان الطفلة بالدمى والعرائس ، حتى أفاضوا عليها شكولا وألوانا من هذه التماثيل ، فاجتمع للطفلة من عرائس القطن والجلد والمطاط وغيره حشد كبير .

وعلى الرغم من تكرار الهدايا فى نوعها الموحد وصنوفها المتشابهة ، فان الصبية تتلقى الجديد منها بمشـــبوب من الشغف ، كأنا تهدى اليها أول مرة كانت العروس تهـــدى الى الطفلة دمية صامتة ساكنة لا حس فيها ولا حراك ، فاذا تقبلتها الطفلة أسرعت اليهـــا تتحدث وأقبلت عليها تتعرف ، فكأنما تنفخ فيها من روحهـــا ، ليســـتكمل خلقها ، وتبث فيها خفقة الحياة ، فاذا الدمية الصموت ناطقة ، واذا العروس الجامدة خلق آخر يشعر ويحس ، واذا هى قد أخذت مكانهـــا بين العرائس الصواحب يتناقلن الحديث ، ويسترسلن فى ثرثرة ومعابثة .

وأفردت الطفلة لمملكة العرائس ركنا من حجرتها ، عمرته بما يلزم من أدوات الحياكة والتزين والتطيب ، وأطلقت على كل من العرائس اسما تناديها به .

استأثر بالطفلة ركنهـــا الحبيب ، تقضى فيه الساعات الطوال ، فتستطيب فى صحبة عرائســـها الحياة ، تستوى على مقعدها تسامر الدمى بما شاءت أن تسامرها به من قصص ونوادر ، وأفاكيه وهى تستدر خيالها الساذج فى التأليف والتصنيف ، فلا تلبث أن ترسم صورة

منمقة « للشاطر محمد » مصروفا الى مغامراته الحربية يدير المعارك ، يدك الحصـــون ، ويفتح القلاع ، فتعنو له الجباه وتخر له الجبابر ، ولا تزال به فى ساحة الوغى يكتب نصرا بعد نصر ، حتى يثوب الى عرشـــه ، عليه أكاليل الغار ، محفوفا بالمهابة والفخار .

وان شعرت الطفلة بأن عمار الركن الحبيب تشغب عليها أطلقت فى خضم الشغب والضوضاء قصة «أمنا الغولة» ، فما أن تنفجر القصة بما فيها من تخويف وترهيب ، حتى يعاود الركن — فى زعم الطفلة — أمن وسلام ..

وكثيرا ما نفضت الطفلة لصويحباتها العرائس ذات نفسهـــا ، تكرر عليهن ما تلقطته من أحاديث أمها وحالتهـــا ومربيتها ، وما تقع عيناها عليه من أحداث يومها الطويل ، وكثيرا ما أقبلت على ركنها تسهر على راحة عرائسهـــا فتمضى الوقت حيـــالهن ، تكوى ثوب هذه ، وترجل شعر تلك ، وتتعهـــد سائرهن بألوان من التدبير ....

وتراءت لى الصبية ذات يوم مندفعة الخطو تقصد مجلس أمها وتبسط لها دمية مهشمة الأوصال تستبين بهـــا جراح ، واذا هى تقول وفى صوتهـــا نبرات خوف وفى عيونها بريق الدمع .

لابد من استدعاء الطبيب .

فابتسمت أمها لها تطيب خاطرها ، وهى تشير الى ، وفى نظراتها دعابة :

ألم ترى الطبيب...؟ لقد استدعيته لعروسك المسـكينة ... اعرضيهـــا عليه .

فتطلعت الى الطفلة أقول فى اهتمام مصنوع :

أرينى دميتك ... مالها ... ؟

فتقدمت منى فى تهيب تعرض على الدمية وهى تهمهم :

لقد سقطت عن المنضدة ... فانكسرت ذراعها ..

واسترسلت تغمغم كلمات يقطعهـــا النشيج ، ثم تمالكت تقول فى صـــوت حنون :

لا تقس عليها ... كن بها رحيما ... انها عروس طيبة ...

وتناولت عنهـــا الدميـــة ، وعالجت وصل ذراعها الكسيرة ، حتى أفلحت ، والطفلة محدقة الى ، ملء عينيها قلق واهتياج .

فلما تبينت عروسها قد ردت اليها العافية ، جذبتها منى تحتضنها ، وقد تألق وجهها ذلك التألق الذى تعودت أن ألمحه يرتسم على أسارير الأمهـــات حين يستبشرون بســـلامة أطفالهن من الأمراض والأخطار ...

وسرعـــان مـــا رأيت الطفلة تهرب بدميتها وثابة الخطى ، فاستوقفتها أمها تقول :

ألا تشكرين السيد الطبيب ... ؟ انه جبر ذراع صبيتك ... انه ردها اليك سليمة ... حرى بك أن تقبليه قبلة الشكر وعرفان الجميل ...

فرجعت الى ، ومست جانب وجهى بقبلة خاطفة ، وهى تهمهم فى خجل واستحياء :

شكرا ... ألف شكر .

فحملتها بين يدى أقبلها فى بشاشة وترحيب ، وأنا أوصيهـــا بأن تحوط الدمية الجريح بما يجب من عنـــاية ، مجتهدا فى اكساب ملامحى هيئة الجد ،

كما أفعل حين أوصى أهـــل المريض بالمريض سواء بسواء ...

فاستدارت عجلى تصدف عن البهو ، وهى تخاطب دميتها فى لهجة تتجلى فيها الامرة والسيطرة المشـــفوعة بالتخوف والاشفاق :

أرأيت ما نالك من الشغب ؟ ... لعلك ترتدعين ... اياك والعبث مرة أخرى ...

ســـــلمت ، وبعد الشر عنك ... ستنامين معى ...

والتفتت الأم تقول فى صوت كأنه المناجاة :

انى من طفلتى فى حيرة ... أخشى ما أخشاه اسرافها فى هذه العاطفة .. انها أم يا عزيزى فى جميع خلجاتهـــا وأحاسيسها ... تصور أنها تحتضن فى كل ليلة عروسا من عرائسهـــا ،

فتوزع عليهن لياليها . لكل منهن نوبة كأنما توزع عليهن برها وحنانهـــا بالسوية ... أم بين أولادها ...

لا تخشى مغبـــة تلك العاطفة ... ألسن كفيلة بالتخفيف من حدتها .

فقالت :

أهى تخف على علو السن أم تحتد ؟

فأجبتها :

أعنى أنها تنضج مع الأيام ... فلا يكون لهـــا ذلك المظهر الطفولى الذى ترين .

فعقبت تقول :

ألا تخشى نضج هذه العاطفة قبـــل الأوان ، فيكون لذلك أثر فى مســـتقبل الصغيرة غير مأمون ؟

والحق أنى كتمت عن الأم قلقى ممـــا اســـتشفه وراء الأفق البعيد فى غيب السنين ...

اقبلت أسائل نفسى :

ماذا يكون موقف تلك الأم المبكرة فى ملتطم الحياة ومجاهل الأيام ؟ ..

وواصل الزمن سيره الدائب يزيد الفتاة من بهاء ونماء ، لقد صاغتهـــا يد التطور حلية مكتملة الوضوح ... فتاة مجتمع راقية تشع منهـــا الأنوثة بضة الاهاب ...

كانت تلك الزهرة فيمـــا يتجلى من تصرفاتها تفصح عن عاطفة جياشة ، كأنها قبسة قدسية تتوقد لا يخبو لها أوار .

لقد آن لهذا النبع الفياض أن تتفجر منه الحيـــاة ، وأن يتراءى منه جدول رقراق كله صفاء ونقاء ...

وربما جاذبنا الفتاة أطراف الحديث فى شأن الزواج ، فتنبعث للمناقشة فى يقظةوفطنة وحسن تقدير ، انسئلت ماذا تنشد فى حياتها الزوجية ؟ أجابتك فى نشوة واخلاص : طفلا أرعاه ... طفلا أحسن تنشئته ... طفلا أفرغ له بكل ما أملك من اسعاد وتنعيم .

تزوجت الفتاة ...

وأقبل عليها زوجها يساقيهـــا كأس الهناءة ويطارحها متعة الحب ، فانبعثت تشيد صرح الأمانى وتنمق عش الأحلام

وتوالت بها الأعوام دون أن ترف فى احشائها خلجة حياة للجنين المنشود ، فجن جنونها وتناوحت فى رأسهـــا الفكر ، وحجبت عينيها غشاوة نحت عن أنظارها ما تمثلته من حياتها الزوجية ، روضة فيحاء مورقة ملء أدواحها لحن الطيور المغردة ... أتلبث عقيما لاتنجب كتلك الشجرة العجفاء لا ظل لها ولا ثمر ... ؟

أتستحيل دنياها صحراء مواتا تعبث فيها الوحشة والخراب ، وتتعاورهـــا سموم الرياح ، وتصبح هى فى جحيم تلك الصحراء حصاة يشقيهـــا اليبس والجفاف ... ؟

لا صبر لها على عيش يطبق عليـــه الصمت والظلام !

ولم تدخر جهدا ولا وسعا فى التنقل بين أيدى الأطباء ، غير مقتصدة فى مال يبذل ، ولا مقصره فى استجابة لنصيحة ترعى ...

لقد ضاقت هى بفضاء الأرض ، وبعلم الأرض ، وبطب الأرض ... فلا مندوحة لها الا أن تبســـط كفها تســـتدنى السماء .

ويوما برقت للزوجة ظنـــون آملة مستبشرة ، ولم تلبث هذه الظنون أن تحقق صدقهـــا ، وبان على يقين أن الزوجة تنطوى على حمل ...

وكان حملها شغلها الشـــاغل فى يومها الأطول وحلمها الحافل فى نومها

البهيج ، تحرص أشد الحرص على جنينها حين تخطو وحين تميل ، خشـــية عليه وحياطة له ، وايثارا لعافيته المبتغاة ..

واذا خلت الى نفسها تستمرىء متعة حملها تطلعت فيما بين جنبيها وقد علا تنفخه ، فتنعم النظر كأنما هى تود أن تستجلى جنينها المحبوب ...

لا يقع فى بالهـا أن يكون ذكرا أو أنثى ...

فليكن ما يكون ... حسبها من متاع الدنيا وفتنة الوجود أن يمرح بين يديها وليد ...

وبدأت تحس بالحيـــاة تدب فى احشائها النامية ، فكلما تقلب الجنين لم تتمالك أن تتحير فى عينيها دموع اليمن والتفاؤل والسرور ...

واختلفت الفتاة الى متاجر الثيـــاب والزينة ، تتخير لطفلها المنتظر ألوانا من الاكسية والطرف فى تأنق وسخاء ، ان طفلها جدير بأن يحوطه الجمال فى كل شىء ... فى اسمه ، فى زيه ، فى زينته ...

لتوفرن له الهنـــاءة والرفاهيـــة والاسعاد ...

وتبعد الزوجة أشـــواطا على أجنحة الخيال ، فتتمثل نفسها وقد حملت فى حضنها لفيفة معطرة تختلج ، وهى تسبغ عليها دفء الحنان من صدر يموج فيه الحب الفياض ...

وتتعطف عليه تتوسم جبينه المتألق ، وقد رنحها زهو ونشوة واستمتاع .

وتسترسل فى خيالها تصـــغى الى صراخ الطفل الحبيب ... صراخ النشطة والحركة والتفتح للحياة .

لسوف تأنس بأنات الوليد ... وما يبعثه من بكاء وصياح ...

لسوف يقع ذلك من سمعها موقع الروعة ، فما بكاء الطفل الا لحن الوجود وأنشودة الخلود ...

فليتصايح طفلها ما طاب له الصياح

وتتغالى الزوجة فى خيالها ، فيتراءى طفلها لا تكاد تلده حتى يصبح عملاقا فى مهده قادرا أن يدبر ملكا ، ويسوس دولة ...

لقد أضـــحى مهيب الجانب تزين رجولته قسامة ووسامة ...

نساء الأرض تدب فى ضراعة وتذلل ، لكى تســـتجدى منـه نظرة الرضى والايثـار ، ولكن العملاق لا يلبث أن يعود طفلا يبعث بصرخاته مهتز الشفتين يطلب الغذاء ، فتلقمه الأم ثديها وتحنو عليه بذراعهـــا ، فيرتضع فى طمأنينة وسكينة واستمراء ...

بذلك تنتهى رحلة الزوجة فى عالم الأطياف ترطب بها قلبها الولهان ، ثم تنجاب عنها الأوهام ، وهى ما برحت فى مجلسها مدلية بأنظارها فيما بين جنبيها تتوسم وتستشف .

انها قلقة تترقب ... أذنها عطشى الى السماع ... عينها عطشى الى التطلع ... ذراعها عطشى الى الالتفاف ... ثديها عطشـــان الى الارتشـــاف ... جوارحها جميعا تهفو الى اللفيفة الخافقة الصاخبة تشعرها ببهجة الحياة ويقظة الوجود .

طفلها الحبيب ...لن تكون له مرضع سواها ... لن يخلو به غيرها ... ستفرد له وقتها أجمع وحنانها أجمع ... لتهبن له حياتها جمعاء .

وأقبل اليوم الموعود ...

فلما جاء المخاض دعتنى أن أشرف عليها فى مستشفى التوليد ، وشـــد ما أوصتنى بطفلها لا أسوءه ولا أمسه بأذى .

وتوالت الساعات صعابا تعانى فيها الزوجة تبـــاريح الألم ، والجنين عنيد لا يتحلحل ، والطب يبـذل وســـائله السلمية دون جدوى ...

وحانت اللحظة الحاسمة ، فلم يكن بد من اجلاء الجنين على أى نحو يكون، استخلاصا للأم من براثن الخطر .

وانحصرت مهمتى منبعد فى أن أنهى الى الأم نبأ فقدانها الطفل المنتظر ...

كنت بجانبها عندما أفاقت تتحسس بعينهـــا اللفيفة مرهفة أذنها الى تلك الأنات التى طالما ترنمت بها فى عالم الرؤى والأوهام ، فلما لم تجد ماينا جى روحها العطشى رمقتنى بنظرة ارتياب ، تسالنى :

أين الطفل ؟ ...

وخيل الى أنى قادر على مكاشفتهـا بالسر الأليم ، فاضطرب لسانى لايفصح ولا يبين ، وجعلت أخلط فى الجواب ، فتطلعت الى والحيرة بادية عليها تستكنه ما بطن من أمرى ، واذا بى على حالمن السهوم والجمود ، فصرخت لى :

أين طفلى ... ؟ أمسه مكروه ؟

وما تمالكت أن أطرق ، والدنيـــا تضيق حيالى ، وألفيتنى أشير الى الممرضة اشارة تفهمهـا ، فأسرعت الى المخدر تحقن به الأم الثكلى .

ولما بلغت من حديثى ذلك المبلغ ، ضربت ركبتى بيدى فى سكتة قصيرة ، فسمعت سيدة البيت تهمهم فى صوت حسير :

مسكينة ... لا بد أنها جنت ... من كان فى مثل حالها لا يثبت له عقل فشخصت اليها أعاود قصتى ، وقـد أخرجت لفـــافة تبغ من علبتى أنفت دخانها جزافا ، وأتناول قدح القهوة أرشف منه :

أمضت الثكلى أيامها لا تريم عشها يتنازعها وحشة وانقباض ووجوم ، وفى صدرهـا يشب ضرام الحزن والتلهف على ذلك العصفور الذى ارتحل ، ولن يعود لكى يمزق الصـــمت بتغريده الأنيس ...

وأرادنى الصيف على أن أرتحل ...

واستأنفت عملى بعد الغيبة ، فاذا حاضنة الزوجة تزورنى لتشكو الى بعض ما تجد ، فبادرتها عن ربة البيت كيف حالها ... فاسترسلت تقول :

لا شغل لها فى الصباح الا أن تتخذ مقعدا حيال النافذة تسرح منـه النظر كأنها على موعد من زائر كريم ، ترتقب شبحه فى الأفق البعيد ، وعن كثب منها ســـلة حافلة بقطع من النسيج وكرات من الخيوط لا تفتأ أناملها تصنع منها الأكسية الصـــغيرة واللفائف الدقيقة ...

وفى هدأة الليل تخفق قدماها فى حجرة النوم متحيرة ، وتتوخى صوان الثياب مشبوبة الوجدان ، فتستخرج منه عروسا من قطن توسدها حضنها وتهدهدها ساعة ، ولا تلبث أن تكسوها بما نسجته لها من أثواب ، حتى اذا استكملت لها زينتها حملتها الى مهد الطفل ، فأرقدتها فيه ، واتخذت مجلسها بجانبه تهزه فى رفق ، وتترنم بأغنية هادئة الأنغام ... ويتخافت الصوت رويدا رويدا ، حتى يخيم على الحجرة صمت مرهوب ، فاذا بها على حين فجأة تهبط على حافة المهد متشبثة بأعواده ، وقد انتابتها رعدة ، واستبد بها نشيج موصول .